

زياد ماجد*

إريك رولو: ٦٠ عاماً للصحافة والشرق الأوسط



درس الحقوق في جامعة الجيزة، وتعرّف خلال الدراسة والأنشطة الطلابية إلى الحركة الشيوعية المصرية واعتنق الماركسية، كما تعرّف إلى ناشطين من أقصى اليسار الصهيوني ومن "الصندوق الوطني اليهودي"، وبدأ بالكتابة، وهو في السابعة عشرة من

* أكاديمي وباحث لبناني.

رحل إريك رولو (إيلي رّفول) في شباط / فبراير الفائت عن واحد وتسعين عاماً، أمضى أكثر من ٦٠ منها في تغطية أحوال الشرق الأوسط وتحولاته ومقابلة الفاعلين فيه. في صيف سنة ١٩٢٦، وُلد إيلي رّفول في ضاحية مصر الجديدة (هليوبوليس)، في عائلة يهودية مصرية.

سنة ١٩٥٢ في وكالة الصحافة الفرنسية، مغطياً أخبار مصر والعالم العربي، ومستفيداً من إلمامه باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية. وفي سنة ١٩٥٥، كتب لأول مرة لجريدة "لوموند" التي ستصبح مركز عمله بدءاً من سنة ١٩٥٦، وستشهد صفحاتها دورياً مقالاته ومقابلاته وتغطيته لشؤون الشرق الأوسط موقعة باسم جديد اتخذه لنفسه هو: إريك رولو.

الصحافة وتأريخ الأحداث

بين سنتي ١٩٥٦ و١٩٨٤ كتب رولو مئات المقالات في الجريدة الفرنسية الأوسع تأثيراً، وأجرى عشرات المقابلات، وحلّل أحداثاً غير بعضها وجه الشرق الأوسط. فمن تأميم قناة السويس والعدوان الثلاثي على مصر، إلى الانقلاب العسكري في تركيا في سنة ١٩٦٠، إلى لقاء مصطفى البرزاني وشرح "القضية الكردية" ومتابعتها عدة أعوام، إلى حرب ١٩٦٧ وهزيمة الجيوش العربية، مروراً بأحداث "أيلول الأسود" في عمّان، ثم الأزمة القبرصية في سنة ١٩٧٤ (وكانت قبرص يومها تُدرج صحافياً ضمن منطقة الشرق الأوسط)، ثم الحرب اللبنانية، ومن بعدها الثورة الإيرانية في سنة ١٩٧٩ والحرب العراقية - الإيرانية، فالاجتياح الإسرائيلي للبنان وانتقال منظمة التحرير الفلسطينية إلى تونس، تابع رولو تطورات المنطقة وزارها عشرات المرات، وتحوّل إلى أحد المراجع التي يعود إليها المهتمون بفهم الأحداث في فرنسا، من سياسيين وباحثين أكاديميين. ولعل دعوة جمال عبد الناصر له في سنة ١٩٦٣ من أجل محاورته في القاهرة شكلت نقطة تحوّل مهمة في مسيرته الصحافية، ذلك بأنها فتحت له الأبواب لاحقاً في أكثر

عمره، في جريدة الـ "غازيت المصرية" الناطقة باللغة الإنجليزية. أتاحت له دراسة الحقوق وما رافقها من أنشطة وصلات سياسية وعمل صحافي، في لحظة احتدام الصراع العربي - الصهيوني في فلسطين، مقارنةً للمسألة اليهودية أبعده عن مقاربات التيارات الصهيونية المتعددة، بمعنى أنه لم يرَ في تحويل اليهودية إلى قضية قومية ما يجذبه، وهو المصري الماركسي المنجذب ثقافياً إلى فرنسا وأدائها. فانتسب في سنة ١٩٤٥ إلى "حدثو" ("الحركة الديمقراطية للتححرر الوطني") أكبر المنظمات الشيوعية المصرية التي كان هنري كورييل أبرز مؤسسيها، وشارك في الانتفاضة الشعبية ضد الإنجليز في شباط / فبراير ١٩٤٦، وكتب عن الكفاح العمالي وعن القضايا الاجتماعية والسياسية المصرية. وحظي بعد ذلك بثلاثة أعوام، بمقابلة صحافية مع حسن البنا مؤسس جماعة الإخوان المسلمين وزعيمها (قبل مدة وجيزة من اغتياله)، وكانت تلك المقابلة أول لقاءاته مع الشخصيات المصرية والعربية المؤثرة. في الوقت عينه، وجرّاء النكبة الفلسطينية وما تبعها من حملات تشكيك في وطنية اليهود المصريين، تعرّض إيلي رفّول وسواه من يهود مصر (والعالم العربي) لضغوط وصلت في حالته (بسبب نشاطاته السياسية وكتاباته الصحافية) إلى حدّ تجريده من الجنسية المصرية، وتخيير سلطات الملك فاروق له في سنة ١٩٥١ بين المنفى أو السجن لانتمائه (الفعلي) إلى اليسار الشيوعي واتهامه (الكاذب) بالعلاقة بالحركة الصهيونية. هذا الأمر دفع رفّول إلى اتخاذ قرار بمغادرة مصر إلى فرنسا، حيث بدأت مرحلة جديدة من حياته. عمل رفّول بعد وصوله إلى باريس في

الانقلاب العسكري المدعوم من أئينا ضد الرئيس مكاربوس. وبهذا، يمكن القول إن تأريخاً لأحداث المنطقة يمكن بناؤه عبر تتبع كتابات رولو ولقاءاته وروايته للأحداث في مرحلة "لوموند" المذكورة، والتي انتهت في أوائل الثمانينيات مع وصول فرنسوا ميتران إلى قصر الإليزيه.

تجربة دبلوماسية بين تونس وأنقرة

في سنة ١٩٨٤، بعد ثلاثة أعوام من تولّيه الرئاسة الفرنسية، كلّف ميتران إريك رولو - الذي عرفه جيداً - بمهمة "غير رسمية" في ليبيا لإقناع القذافي بسحب قواته من تشاد. وقد ساهمت تلك المهمة، علاوة على جملة تطورات، في تبديل تعامل القذافي مع جارتها الجنوبية، كما فتحت أمام رولو مجال خوض المعترك الدبلوماسي، فجرى تعيينه في سنة ١٩٨٥ سفيراً لفرنسا في تونس، وكان المنصب ذاك مهماً لوجود مقر منظمة التحرير الفلسطينية في العاصمة التونسية، وهو الذي تجمعته علاقة وطيدة بقياداتها. ومن تونس، سافر رولو في مهمة سرّية إلى طهران، كي يفاوض القيادة الإيرانية على إطلاق الرهائن الفرنسيين المحتجزين في لبنان، لكن مهمته فشلت لأسباب ردها البعض إلى تنافس داخلي فرنسي عشية انتخابات تشريعية فاز فيها اليمين في سنة ١٩٨٦، وتشكلت بعدها "حكومة مساكنة" بين الرئيس الاشتراكي ميتران ورئيس حكومته الديغولي جاك شيراك. وهذا الأخير الذي نفى أي مسؤولية لفريقه السياسي عن فشل التفاوض مع الإيرانيين، طلب من ميتران عزل رولو، وأصرّ في زيارته الرسمية الأولى لتونس على ألا يكون رولو حاضراً.

من دولة عربية، وجعلته قادراً على محاوره زعماء دول كثر، من الملك حسين إلى ياسر عرفات، ومن صدام حسين إلى حافظ الأسد ومعمر القذافي، وصولاً إلى الإمام الخميني. أمّا إسرائيلياً، فقد أتاحت له مكانة "لوموند" ومرجعيتها فيها مقابلة دافيد بن - غوريون وغولدا مائير وموشيه دايان ويتسحاق رابين وشمعون بيرس، لكنه تعرّض ابتداءً من منتصف سبعينيات القرن الماضي، وخصوصاً بعد وصول مناحم بيغن إلى رئاسة الحكومة، لحملة سياسية وإعلامية إسرائيلية اتهمته بـ "كراهية الذات" وبـ "العمالة لمصر"، ثم بـ "دعم منظمة التحرير الفلسطينية"، فقاطعته المؤسسة (establishment) الإسرائيلية. ونظمت السفارة الإسرائيلية في باريس أكثر من حملة ضده حرّضت فيها على الكتابة إلى جريدة "لوموند" للاعتراض على مقالاته، وعلى إدارته وصديقه ورفيق دربه مهنيّاً هايج كيرازيان (جان غيراس) للقسم الدولي في الجريدة.

على أن حملات الضغط هذه لم تؤثر في تعامل "لوموند" مع المساحة المتروكة لرولو وكتاباته، وهو الذي أمّن للجريدة بحدسه السياسي وفهمه العميق للديناميات السياسية وبعلاقاته الواسعة، السبق الصحافي تلو الآخر، والتحليل الرصين لخلفيات الأحداث وتداعياتها ومؤدياتها. ويسجّل متابعه أنه وجد أكثر من مرة في المكان "الملائم" للصحافيين الراصدين الأخبار الشرق الأوسطية، إن في القاهرة في حزيران / يونيو ١٩٦٧ قبل أيام من اندلاع الحرب، أو في عمّان في أيلول / سبتمبر ١٩٧٠ خلال الصدامات بين الجيش الأردني والمقاتلين الفلسطينيين، أو بعد ذلك بأسبوعين في القاهرة عشية وفاة عبد الناصر، أو حتى في نيقوسيا في تموز / يوليو ١٩٧٤ عشية

بلدانها لعقود طويلة. كتابه الأخير هذا هو ثالث كتبه، إذ سبق أن صدر له في سنة ١٩٦٧ كتاب (بالفرنسية) بعنوان "العرب وإسرائيل: المعركة الثالثة"، والذي تشارك في كتابته مع جان فرنسوا هيلد وجان وسيمون لاكوتير، كما صدر له في سنة ١٩٧٨ (بالفرنسية، ثم في سنة ١٩٨١ بالإنجليزية) كتاب حوارات مع صلاح خلف / أبو أياد، بعنوان "فلسطيني بلا وطن".

وفي التقديم الذي كتبه الصحفي الفرنسي آلان غريش لكتاب رولو الأخير: "في كواليس الشرق الأوسط"، يروي غريش أن رولو كان يحب أن يخبر أصدقاءه ومعارفه عما حدث معه يوم "عودته" وزوجته روزي للمرة الأولى لزيارة البيت الذي وُلد فيه في ضاحية القاهرة في أواخر الستينيات. فقد استقبله بلطف القاطنون في البيت، بعد أن قرع بابه، وتبين له أنهم فلسطينيون. فقال مازحاً إن "فلسطينيين يحتلون بيتي!" ونشأت منذ تلك اللحظة صداقة جمعت بهؤلاء الفلسطينيين، وظل خلالها يحس نفسه قريباً إليهم، ومنزوع الجذور مثلهم. إريك رولو، المصري الفرنسي، والصحافي الدبلوماسي، واليهودي الفلسطيني، رحل في ٢٥ شباط / فبراير ٢٠١٥ في أوزيس في جنوب فرنسا تاركاً إرثاً لا نبالغ إذا ما اعتبرناه شهادة بليغة عن أحوال منطقة هي الأكثر اضطراباً في عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية. ■

حمى ميتران سفيره لفترة، ثم عينه في سنة ١٩٨٨ سفيراً لفرنسا في تركيا، فأمضى ثلاثة أعوام في أنقرة.

في سنة ١٩٩١ عاد إريك رولو إلى باريس، وترك مهماته الدبلوماسية كي يتفرغ من جديد للكتابة التي ستستضيفها هذه المرة. ولعدة أعوام، صحيفة "لوموند دبلوماسيك" الشهرية. وظل متابعاً عن قرب للمسارات والتطورات السياسية والاجتماعية والاقتصادية الشرق الأوسطية، ومعلقاً عليها. وانضم في سنة ٢٠٠٩ إلى "محكمة راسل من أجل فلسطين" الهادفة إلى الضغط من خلال الرأي العام العالمي على الأمم المتحدة لإنهاء حصانة إسرائيل واحتلالها، وللوصول إلى حل عادل للصراع الفلسطيني - الإسرائيلي.

كواليس الشرق الأوسط

نزولاً عند طلب أصدقائه، تفرغ إريك رولو بين سنتي ٢٠١١ و ٢٠١٢ لكتابة مذكراته، أو بالأحرى لجمع بعضها وتدوين بعضها الآخر. فأصدر في تشرين الأول / أكتوبر ٢٠١٢ في باريس كتابه (بالفرنسية) "في كواليس الشرق الأوسط: مذكرات صحافي دبلوماسي (١٩٥٢ - ٢٠١٢)"، الذي ضمّنه تجاربه وملاحظاته وسيرته المرافقة لسيرة منطقة عاش فيها وتحدث بلسانها وكتب عنها ثم عاد إليها وظل يتنقل بين